

فتحى غانم

مواد خام لصناعة المستقبل

obeikandi.com



obeikandi.com



التفكير فى المستقبل ومحاولة تصويره ، شىء ، والتخمين والتمنى شىء آخر .
ولست من هواة التخمين ، ولا أريد أن يتهمنى أحد بالرجيم بالغيب ، ولكنى مشغول
مثل بقية البشر بالمستقبل ، سواء كان ذلك بالنسبة لمستقبل حياتى الخاصة ،
أو مستقبل المجتمع الذى أعيش فيه . ولا أحد يستطيع أن يقلت من المستقبل ،
إنه يلاحقنا فى كل لحظة ، وفى الحقيقة أننا لا نكاد نعيش الحاضر ، ففى
اللحظة نفسها التى نتبين فيها الحاضر المحيط بنا ، يكون قد تحول إلى ماضٍ وذكرى ،
وهكذا يندفع بنا قطار الحياة من الماضى إلى المستقبل مروراً بحاضر يستحيل
الإمساك به وتجميد لحظته . فالماضى والمستقبل هما اللذان يحركان الحياة . وهما
وقودها ، وهما طرفا الصراع فيها ، وبهما تنمو الحياة وتنضج وتزدهر ، أو تذبل
الحياة وتخبو وتندثر . ومن هنا كان التفكير لا التخمين ، والتصور القائم على الدراسة
والتحليل ، لا الرجيم بالغيب ، ضرورة لا مناص منها لمحاولة تصور المستقبل . . أى
مستقبل .

فإذا كنا نريد أن نتصور مستقبل مصر أو مستقبل الأمة العربية بعد ما تحقق
من انتصارات فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة ، فلا بد لنا أن نستعين بأحداث

الماضى لئلا نمتحن بها صدق أحلامنا فى المستقبل . لابد أن نعتمد على خبراتنا السابقة التى اكتسبناها من تجاربنا الماضية ونحن نحاول تقديم صياغة لآمالنا وأهدافنا فى المستقبل . ولا شك أن الحاجة إلى المعلومات الدقيقة الواقية تفرض نفسها . فبغير هذه المعلومات لا يكون هناك أساس صالح يقوم عليه البناء . ولذلك أناشد كل من ساهم فى حرب أكتوبر المجيدة ، على أى مستوى من المسئولية ، كبيراً كان أو صغيراً ، أن يسارع بتسجيل ما لديه من معلومات ، وأن يوجهها إلى الجهات المختصة فى المجالات المختلفة ، وعلى هذه الجهات أن تولى هذه المعلومات العناية القصوى من الدراسة والتحليل ، وإذا لم تستطع فعلى الأقل تحتفظ بما يتجمع لديها من معلومات ، وأن تصونها ، فأغلب ظنى أن كل معلومة حول هذه الحرب ستجد من يهتم بها الآن ، أو لعشرات السنوات أو مئاتها القادمة . أجيال من الساسة والعسكريين والمؤرخين والأدباء والشعراء وعلماء الاجتماع والإدارة والاقتصاد وغيرهم وغيرهم ، سوف يجدون فى أحداث هذه الحرب ، وفما سجله الذين شاركوا فيها من تجارب وانطباعات وخبرات ووجهات نظر ، كنزاً لا تقنى من المعرفة التى تنير الطريق لتصور أكثر صحة وسلامة لمستقبلهم .

ولنا فى حملة نابليون بونابرت على مصر عبرة . فقد جاء مع جيش بونابرت حشد من العلماء والفنانين سجلوا كل ما رأوه . لم يكتفوا بتسجيل حقائق الاقتصاد المصرى أو المجتمع المصرى ، بل فحصوا كل شئ ، ووصفوه فى كتاب « وصف مصر » ، من الآثار إلى الطيور والنباتات والحيوانات إلى رسم ملابس النساء والرجال ؛ حقاً لم يتركوا شيئاً يخطر ببال إلا سجلوه ، هذا بالإضافة إلى الرصيد الضخم من المذكرات واليوميات والرسائل الذى تركه الضباط والجنود والأطباء والمهندسون وغيرهم ممن شاركوا فى الحملة . ولقد كان هذا الحشد الهائل من المعلومات أساساً هاماً لوضع استراتيجيات وسياسات أوربية لمستقبل مصر ومنطقة الشرق الأوسط ، كما أرادوه هم ، لا كما كنا نريده نحن ، ولتحقيق مصالحهم لا مصالحنا ولتقوية نفوذهم لا نفوذنا ، ومع ذلك استفادت العلوم والفنون فى توظيف هذه المعلومات لخدمة الإنسانية كلها . ولا أنكر أننا استفدنا أيضاً من هذه المعلومات

والدراسات التي قامت بها حملة بونا برت . وإن كانت الفائدة جاءت متأخرة . وبعد أن اكتسب بها من سبقنا إليها قوة وسلطة .

ولقد استشر الرئيس أنور السادات قائد وبطل حرب أكتوبر المجيدة ، أهمية تسجيل المعلومات العسكرية كافة المتصلة بهذه الحرب ، وأصدر توجيهاته بإعداد كتاب جامع شامل من واقع تجارب وخبرات كل القادة الذين شاركوا فيها . ولعل هذا التوجيه التابع من حس تاريخي مرهف لزعيم سياسي يتعامل مع التاريخ ، أن يكون مفتاحاً لاهتمام كل من شاركوا في هذه الحرب ، في مجالات الصناعة والنقل والإدارة والتموين والاقتصاد والإعلام والثقافة وغيرها ليسجلوا بدورهم ما لديهم من معلومات وخبرات . كذلك علينا أن نهتم بما سجله الجنود من يوميات أو مذكرات ، وأن نحفظ برسائلهم من الجبهة إلى أسرهم وأصدقائهم ، ومن مجموع هذه المعلومات ، تتكون المادة الخام اللازمة لصناعة التفكير في مستقبلنا بعد حرب أكتوبر المجيدة .

غير أن التفكير في المستقبل . ومحاولة تصويره عملية تلازمنا في كل لحظة . وكما سبق أن قلت لا نستطيع أن نفلت منها . وهناك قدر من بناء مستقبلنا نستطيع أن نبنيه بوضوح ، حتى قبل أن تتجمع لدينا كل المعلومات التي اكتسبناها من خوض تجربة الحرب .

فأنا لا أرجح بالغيب ، عندما أتصور مستقبل بلادى كمصرى وكعربى ، وقد تخلصت تماماً من كل نفوذ استعماري يحتل بعض أراضيها عدواناً واغتصاباً في محاولة عنيدة لثيمة لإخضاعها والسيطرة عليها .

ولا أريد أن أقدم تصورى للمستقبل من خلال مناقشة سياسية ، عن دور الاستعمار القديم والاستعمار الحديث في عالم اليوم ، والنهاية المحتومة لزوال هذا الدور وانتصار الشعوب ، لأن بي رغبة أن أقدم تصورى للمستقبل ، من خلال مواقف إنسانية واجهتها بنفسى في الماضي . ولعل الذى يدفعنى إلى ذلك ، هو أن الحديث عن المستقبل يجعلنى على الفور أفكر مثل أى أب فى ولدى الذى لم يبلغ العاشرة بعد . وقد لا يفهم حديث السياسة ، ولكنه بكل تأكيد ينصت باهتمام وشغف عندما أحكى له عن بلدنا من خلال تجارب أو مواقف واجهها أبوه أو جده .

ولقد كنت في التاسعة من عمري عندما واجهني بقسوة السؤال نفسه الذي أتدبر الإجابة عنه اليوم . ما هو مستقبل مصر؟

كنت مع أخي الذي يصغرنى بستين طفلين يسيران مع والدهما المشغول عنهما بأصدقائه الكبار . كان ذلك في الثلاثينيات . وكنا نسير على كورنيش الإسكندرية ، عندما وقف الكبار ، وأعطوا البحر ظهورهم ، وجعلوا يحدقون أمامهم في بناء ضخم مرتفع ممتد يحرسه جنود إنجليز . كان ثكنات الجيش البريطاني في مصطفى باشا . وكانوا يتحدثون وأنا أشعر بالملل من الوقوف ، حتى فاجأني صوت أبي وهو ينظر إلى وإلى أخي مخاطباً أصحابه :

— كم أتمنى أن أعيش حتى أرى علماً مصرياً فوق هذه الثكنات .

كان حديث أبي عن الحياة والموت مفزعاً . كان زلزالاً يهز بقسوة كل ما بي من طفولة .

واستمر أبي يقول ، وهو ينظر في عيني :

— لو مت . . فعليكم أنتم أن تحققوا هذه الأمنية . .

وارتجفت ، ولم أفهم تماماً قوله : « لو مت » ، ولكن قلبي كان ينبض بخوف وغضب شديدين ، ولم أنبس بكلمة ، وما كان ينتظر مني أن أقول له شيئاً ، ولا أذكر شيئاً أضيفه إلى هذا المشهد ، الذي ما زال يلاحقني بانفعالات شتى من الثلاثينيات حتى السبعينيات .

مات أبي ، والعلم البريطاني رمز احتلال الأرض المصرية ما زال فوق سارية في ثكنات مصطفى باشا في قلب رمل الإسكندرية ، وما زال فوق سارية في ثكنات قصر النيل في قلب القاهرة ، وفي قلعة صلاح الدين يطل على القاهرة .

وأينما رأيت علم الاحتلال ، كان السؤال يواجهني بكل قسوته . ما مستقبل مصر؟ وكانت الإجابة الوحيدة الممكنة ، والتي لا إجابة غيرها ، هي أن علم الاحتلال سوف يسقط وعلم مصر سوف يرتفع .

عندما قامت الحرب العالمية الثانية — صار فوق أرض مصر علمان للاحتلال : أحدهما بريطاني ، والثاني نازي فاشستي . وذات يوم انطلق جندي من جنود الاحتلال

البريطاني بعربة ضخمة تحمل فوقها طائرة محطمة ، في شارع القصر العيني المزدحم ، وضرب بسيارته أخى فئات على الفور .

إننا نموت ، وعلم الاحتلال أصبح علمين . والسؤال عن مستقبل مصر . وبقاء علم الاحتلال فوق أرضها ، سؤال عن الحياة أو الموت . ليس بالنسبة لى وحدى ، ولكن بالنسبة لنا جميعاً ، كل منا له أب أو أخ أو جد أو ابن يدعوهُ إلى التفكير في مستقبل مصر ، ويفرض عليه بحكم التجارب والذكريات والخبرات المستفادة ، أن يكون التصور الوحيد والممكن هو حتمية تحرير كل شبر من الأرض .

ومع معارك المواجهة مع الاحتلال تراكمت الخبرات ، وتكشفت مواقع قوة الاحتلال ونفوذه ، كما تجمعت قوى المقاومة والتحرير ، وعلمتنا التجارب أن سقوط أعلام الاحتلال هو هدف يتطلب تحقيقه أن نحاصر أعوان الاستعمار والمتحالقين معه والمستفيدين من وجوده . . وأن نضربهم قبل أن نضربه . عرفنا ذلك بالتجربة ، وقبل أن نقرأ عن الاستراتيجية الحديثة التى تؤكد أن الاقتراب غير المباشر من الهدف ، هو أسرع الطرق للوصول إليه . وهكذا كانت مظاهراتنا كطلبة ضد الملك وأعوانه ، وباشوات الإنجليز وعملائهم . وأصبح تصور المستقبل ، ليس كلاماً إنشائياً مجرداً ، أو قصائد يديجها الشعراء فى المناسبات ، ولكنه كفاح عملى فى الشوارع ، ودماء تسيل ، وسجون ومعتقلات ، وحركات فدائية وإرهابية ، وكل ما تشاء أن تتخيله من تنظيمات ومنشورات وقضايا سياسية ، حتى انتهى كل هذا إلى ولادة صورة للمستقبل فى قيام تنظيم سرى للضباط الأحرار بثورة ٢٣ يوليو .

عندما طرد الملك ، وحوصر أعوان الاستعمار ، تحقّق صدق الاستراتيجية الحديثة فى مناداتها بأسلوب الاقتراب غير المباشر . فانهصر الاحتلال إلى قاعدة القناة ، بعد أن استطاعت المظاهرات والكفاح السياسى الشعبى أن يجلباه من قبل ، ويسقطا أعلامه من فوق ثكنات مصطفى باشا فى الإسكندرية ، وقصر النيل والقلعة والعباسية فى القاهرة .

ولم أفرح فرحة كاملة ، وأنا أقف على كورنيش الإسكندرية ، وقد جعلت ظهرى إلى البحر ، مواجهاً ثكنات مصطفى باشا والعلم المصرى يرفرف على السارية ،

والجنود المصريون يحرسونه ، وصوت أبى ، وذكرى أخى يحيطان بى . لقد كبرت وعرفت أن الاحتلال ليس هو تلك الراية التى سقطت فى الإسكندرية والقاهرة . وأنه مازال هناك فى القناة ، وأن المعركة مازالت قائمة ، ولكن المستقبل الذى نريده سوف نحققه .

وعندما تم جلاء الإنجليز فى يونيو ١٩٥٦ ، كادت الفرحة تم ، ولكن أشهراً قليلة علمتنا أنها فرحة ساذجة . فالإنجليز الذين ذهبوا فى يونيو عادوا فى أكتوبر ومعهم الفرنسيون وثالتهم إسرائيل . ولم ينسحبوا إلا تحت ظروف سياسية ضاغطة ، ولكنهم تركوا فى نفوسنا يقيناً بأن الصراع مستمر ، وأن السدج وحدهم هم الذين يتوهمون أن النصر الكامل قد تم ، وأن الأخطار قد زالت إلى الأبد .

ولابد أن أخطاء جسيمة هى التى أدت إلى هزيمة ١٩٦٧ ، التى عاد بسببها الاحتلال إلى مصر فى أرض سيناء ، وإلى الأرض العربية فى الضفة الغربية والجولان فضلاً عما كان قد لحق بأرض فلسطين .

ولا شك أننا فى حاجة إلى معلومات كاملة عن أسباب هذه الهزيمة ، فبغير هذه المعلومات لن يستقيم أى تصور للقضاء على كل أسباب تكرارها . ومن حسن الحظ أن انتصار أكتوبر ١٩٧٣ هو مؤثر حاسم بأن قواتنا المسلحة استطاعت أن تعى درس النكسة ، وأن تتغلب على أسبابها . ولعل هذا الانتصار يمهد لنشر المعلومات والدراسات والتحليلات الكاملة حول هزيمة ١٩٦٧ . فهى أيضاً جزء هام من المادة الخام التى يجب توافرها لوضع تصور صحيح وسلمى لمستقبلنا .

وإذا كانت الأمة قد لظمت الصمت وتمسكت بالصبر ثقة منها فى القائد الذى قادها إلى انتصار أكتوبر ، والذى طالها بالصمت والصبر ، فلا شك أنه - مع كل دعم لهذا الانتصار - سوف تزداد الحاجة عند الأمة إلى الاطلاع على أسباب الهزيمة التى سبقته ، لا لإشباع الفضول ، أو لمجرد نبش الذكريات ، ولكن لأن هذا الاطلاع سوف يحرك بين أفراد الأمة كل دوافع التفكير الجاد والعمل الدءوب على تجنب بلادنا فى المستقبل أسباب هزيمة أخرى .

ومع ذلك ، وبرغم هزيمة ١٩٦٧ ، كانت الصورة فى مجملها أن الاستعمار

ينحسر . كان يحتل كل شبر من أرض مصر . ثم انحسر وتحددت مواقعه غربى قناة السويس ، ثم انزاح إلى شرق قناة السويس . فهكذا تقول نظرة التاريخ الشاملة التى لا تنظر إلى الأحداث منفصلة بعضها عن بعض ، بل تضمها فى تيار واحد ، قد يتعرج ، وقد يتلوى ، ولكنه يسير فى اتجاه رئيسى ، وهو بالنسبة لنا اتجاه التحرير والاستقلال الكامل .

وهذه النظرة الشاملة لأحداث التاريخ أكثر صدقاً فى رؤية ما يجرى ، دون أن تضللنا أحداث معينة ، ففترقنا فى تشاؤم لا مسوغ له ، يعطل حركتنا ، ويوهن من قوانا المعنوية . ولقد كان « لورد لويدي » وهو يكتب مذكراته عن مصر التى حكمها كمنسوب سام فى الثلاثينيات يقول : إن تاريخ احتلال إنجلترا لمصر ، إذا نظرنا إليه نظرة تاريخية صحيحة ، فسنجد أنه بالنسبة لهذا الشعب المصرى صاحب التاريخ الطويل العريق الذى امتد فى حضارته إلى آلاف السنين ، لا يعدو أن يكون هامشاً يكتبه المؤرخ فى سطرين فى كتاب ضخيم عريض .

فهكذا كان المحتل يشعر فى قرارة نفسه ، أنه يواجه شعباً أقوى منه برغم أنه يحكمه بالفعل ، ولكنه حكم مؤقت ، ميثوس من استمراره .

والعدو الإسرائيلى لا يفكر على هذا النحو . إن تعصبه الأعمى يدفعه إلى تبنى منطق شاذ . ولقد كان يتصور لنا مستقبلاً غريباً . كان يتوهم أننا سنقبل الهزيمة ، وستلقى الضربات فى حرب بعد أخرى ، دون أن نكتسب أى نوع من الخبرة فى مواجهته ، ودون أن نبتكر أساليبنا الخاصة فى رد عدوانه ، على حين أن تاريخ الإنسان منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا ، هو تاريخ تراكم الخبرات الإنسانية وتطورها فى مواجهة التحديات المختلفة . ومن أهمها تحديات العدوان والاحتصاب .

وقد كان الإنسان يواجه فى عصر ما حيوانات شرسة هائلة ، مثل الديناصور ، واستطاع الإنسان أن يحفظ إنسانيته على الأرض ، ولم يستطع الديناصور الهائل أن يبقى ، فأبيد من على سطح الأرض . وذلك لأن الإنسان قادر على اكتساب الخبرة يوماً بعد يوم . وقادر على تجديد أساليب الحياة حسب تطور ظروف البيئة ، والإنتاج ، على حين ظل الديناصور وحشاً هائجاً بلا عقل .

ولقد كانت النظرة المتعصبة ، الضيقة الأفق ، التي شجعت إسرائيل على اغتصاب الأرض العربية ، هي السبب في الصدمة التي لحقت بإسرائيل في حرب أكتوبر . رفض الإسرائيليون أن يصدقوا أننا قادرون على صياغة مستقبلنا ، وكانت أحزابهم تخوض الانتخابات بعد حرب ٦٧ تحت شعار : « ولا شبر واحد للعرب » . مقابل شعارنا بالآ نلفط فى شبر واحد من الأرض العربية . وكان طريق السلام عندهم : هو إنشاء دولة إسرائيل الكبرى ، الممتدة من النيل إلى الفرات ، وأن كل أرض احتلتها القوات الإسرائيلية أصبحت أرضاً إسرائيلية ، بما فيها الضفة الشرقية لقناة السويس . وكانوا يتحدثون عن تحقيق مستقبلهم الكبير بأسلوب « سياسة الأجيال والمراحل » التي شرحها موسى ديان فى أكثر من مناسبة ، وهو القائل « كل جيل يخوض حربه الخاصة » وبذلك يحقق أهداف مرحلته التاريخية .

وكان يعتقد أن جيله حقق من خريطة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ، الاستيلاء على سيناء حتى قناة السويس ، فى اتجاه النيل ، والاستيلاء على الجولان والضفة الغربية فى اتجاه الفرات . وكانوا يعتقدون أن أمريكا تضمن لهم تحقيق هذا الحلم . وكانوا فى الوقت نفسه يقدمون ضمانات لأمريكا أهمها .

- ألا تتورط أمريكا مع الاتحاد السوفيتى فى مواجهة .

- المحافظة على بقاء الحرب بين إسرائيل والعرب فى حدودها المحلية . وأن هذا الإطار المحلى يضمن انتصار إسرائيل على العرب فى أية حرب تنشب بينهما .

وفى مؤتمر لحزب مزراحى الذى يضم يهود أمريكا . وكان بمناسبة مرور ستين عاماً على إنشاء الحزب . صرح ديان قائلاً :

« ليس هذا هو الوقت المناسب لإعلان قرار ضم الأراضى العربية المحتلة رسمياً من الكنيس . إن خلق الحقائق أهم من إصدار قرارات شكلية . والاستيطان اليهودى فى هذه المناطق التى نحفظ بها ونحكمها بالفعل أهم من إصدار بيانات رسمية عن ضم الأراضى » .

هكذا كانوا يتصورون المستقبل بعد حرب ١٩٦٧ .

وكانت صحف إسرائيل تفيض بالتعصب الاعمى ، فكنت تقرأ فيها مثل هذه

العبارات التي نقلها كنموذج من صحيفة هايوم في ٢٤ أبريل ١٩٦٩ :
 « إن قلبنا يمتلئ بالفخر ونحن نلتفت وراءنا إلى الطريق الذي سلكناه ، فنجد أننا نزداد أمناً مع انتصاراتنا العسكرية ، وإن الحرب هي التي تجعلنا هادئين آمنين ولا بد أن ننزل ضربة قاضية بمصر ، وأن نجعل من الحرب طريقنا إلى السلام » .
 فهل هناك غطرسة أو غرور أكثر من هذا بشاعة ؟ ! أليس هذا هو الديناصور الإسرائيلي الجبار الذي لا بد أن تقضى عليه حماقته في مواجهة الرؤية الإنسانية السليمة ؟ !

لقد كان هذا الغرور الإسرائيلي ، يعميهم عن رؤية المستقبل ، وتصوره تصوراً سليماً . لقد صرح أحد كبار العسكريين لصحيفة ها آرتس الإسرائيلية بأن إسرائيل سوف تنصهر في أية حرب تخوضها ، ولن تحتاج إلى تدخل أمريكا المباشر إلا إذا حدث أمران :

أولهما : أن يستخدم العرب الأسلحة النووية ! !
 ثانيهما : أن يرسل الاتحاد السوفيتي قوات تقليدية برية ضخمة للهجوم على إسرائيل ! !

لقد تعمدت أن أطيل في نقل هذه التصورات الإسرائيلية ، لأنها تكشف لنا الآن مدى الخطأ الذي يقع فيه من يضع تصورات للمستقبل على غير أساس علمي سليم ، معتمداً على التعصب ، أو التخمين أو الرجم بالغيب .

فها نحن أولاء قد خضنا الحرب ، وحققنا فيها انتصاراً تحدث به العالم ، دون أن نلجأ إلى الأسلحة النووية ، ودون أن يرسل الاتحاد السوفيتي قوات تقليدية برية ضخمة ، ولا غير برية ، بل إن كل خبرائه كانوا قد غادروا مصر قبل الحرب .

واستطاع القائد المصري ، والجندى المصري ، أن يحققا إرادتهما وأن يعبرا ، وأن يضطرا إسرائيل إلى الاعتراف بمبدأ الانسحاب ، بل تنفيذه جزئياً ، استعداداً لتنفيذه شاملاً كاملاً ، بعد كل هذا الذي قالوه عن إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات .

ما الذي نتصوره بعد ذلك عن المستقبل .

إن المستقبل ليس كلاماً نظرياً يقال . . إنه مراجعة لتجارب الماضي ودراسة عاقلة حكيمة لما تراكم من خبرات ، تؤكد لنا أن الصراع طويل ، وأن الهزائم نكسات عابرة ، نستطيع أن نعبرها بإيماننا بقضية التحرير ، التي هي بالنسبة لنا قضية حياة أو موت . وانتصارنا فيها محتم ، وعلينا أن نعجل بهذا الانتصار ، فنحاصر كل القوى التي تعطله ، والطريق طويل وشاق ، ولكن حرية الشعوب وخلاصها من الاستعمار والاستغلال أمر حتمي ، بل تكاد تراه من خلال نظرة فاحصة شاملة للتاريخ .